

الدور التاريخي للمدن الإسلامية في بلاد الشام والعراق: دراسة تاريخية مقارنة

علي بدوي

دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سوريا.

ali1987badaw@gmail.com

أوركيد: <https://orcid.org/0009-0003-1578-5103>

مستخلص

سعى هذا البحث إلى الكشف عن الظروف التي ظهرت فيها عدد من المدن الإسلامية في بلاد الشام والعراق وهي دمشق، وحلب، والبصرة، وتبيان الدوافع من تأسيسها، وأهميتها الاستراتيجية والدور الذي اكتسبته خلال القرون الفائتة، حيث تم إظهار المعالم التاريخية والأثرية لهذه المدن، ومقارنتها فيما بينها بهدف معرفة الطريقة التي بنيت فيها. واعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي والذي تم توظيفه في دراسة تاريخ المدن، وكذلك المنهج المقارن في تبيان أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها. إن دراسة تاريخ هذه المدن يبين أن عوامل تأسيسها كانت عدة وأبرزها كانت لأسباب عسكرية، إذ لعبت دوراً وأهمية بالغة خلال فترة الفتوحات الإسلامية، وكانت مقراً ومركزاً لإمداد الجيوش الإسلامية. ويوجد فيها معالم تاريخية كثيرة من جهة الجوامع الإسلامية الأثرية، وكذلك الكنائس، والأسواق القديمة والحمامات والخانات. كما يوجد تشابه بينها لجهة الهيكل العام الإداري كوجود المسجد الجامع وجنبه دار الإمارة، ويحاط به الأسواق المركزية الأساسية وشوارع خاصة توصل إلى كل قسم من أقسامه.

الكلمات المفتاحية: الجامع الكبير، الفتوحات الإسلامية، التطور العمراني، دار الإمارة، الأسواق القديمة، مدينة دمشق، مدينة حلب، مدينة البصرة.

ورد للنشر بتاريخ: 2026 / 8 / 19

قبل للنشر بتاريخ: 2026 / 10 / 4

The Historical Role of Islamic Cities in the Levant and Iraq: A Comparative Historical Study

Ali Badawi

PhD in Arab and Islamic History, Department of History, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Damascus, Syria.

ali1987badaw@gmail.com

ORCID: <https://orcid.org/0009-0003-1578-5103>

Abstract

This research aims to examine the circumstances surrounding the emergence of several Islamic cities in the Levant and Iraq—specifically Damascus, Aleppo, and Basra—and to elucidate the motivations behind their founding, their strategic importance, and the roles they assumed over the centuries. It highlights the historical and archaeological features of these cities and draws comparisons between them to understand their construction methods. The study employs the historical method to examine the cities' histories, alongside the comparative method to identify key similarities and differences among them. A study of the history of these cities reveals that there were several factors behind their founding—most notably military considerations—as they played a crucial role during the era of the Islamic conquests, serving as bases and supply hubs for the Islamic armies. They feature numerous historical landmarks, including ancient mosques, churches, traditional markets, bathhouses, and caravanserais. They also share a similar general administrative layout, characterized by a central congregational mosque situated next to the governor's residence (Dar al-Imara), surrounded by key central markets and specific streets providing access to each section of the city.

Keywords: The Great Mosque, Islamic conquests, urban development, the Governor's Palace (Dar al-Imara), old markets, the city of Damascus, the city of Aleppo, the city of Basra.

Received : 19/8/2026

Accepted : 4/10/2026



© 2026 Author(s). This article is published under the Open Access License CC BY-NC-SA 4.0

مقدمة:

تكتسب دراسة المدن الإسلامية تاريخياً أهمية في مجال الدراسات الأكاديمية، حيث تشير المصادر التاريخية إلى وجود العديد منها قد بُنيت في بلاد الشام والعراق، كالبصرة ودمشق وحلب. وظهرت مدراس تاريخية عدّة تطرقت لتاريخ هذه المدن، فبعضها اعتمد على الكتب التاريخية القديمة كمصدر أساسي، وأخرى ركزت على دراسات المدن الإسلامية وفق شكلها الحالي دون الرجوع إلى عصور ما قبل الإسلام وكان التركيز على فترات زمنية ليست بعيدة، وتعد الأخيرة من المدارس المعاصرة وهي حديثة نسبياً مقارنة مع المدرسة الأولى.

وبنفس الوقت كانت هناك انقسامات بين مدارس المدن الإسلامية فهناك من كان يركز على الجانب الاجتماعي من جهة طبيعة التكوين القبلي والعشائري لكل مدينة. وأخرى تركز على الجانب الهيكلي للمدن من حيث شكل الأبنية والأسواق. إلا أنّ دراسة طبيعة المدن الإسلامية وتبيان أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها يساعد بشكل جلي في فهم طبيعة المجتمعات الإسلامية تاريخياً، وتوضيح آلية إدارة الدولة آنذاك وكذلك تبيان ماهية الحياة السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية.

تبدأ نشأة المدينة العربية الإسلامية من " يثرب " بعد أن هاجر الرسول (عليه الصلاة والسلام) إليها ثم حولها إلى (مدينة) وبعد الهجرة حدث تغيير واضح سعى الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى تحقيقه هو الدعوة إلى الإسلام ذلك الدين الذي بدأت تعاليمه في تهيئة المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تماماً مع اهتمامه بالمدينة. ويتضح من خلال الدراسات التاريخية أنّ الإسلام أبدل العصبية القبلية بعصبية المواطن والأرض واتجهت أفكار الإسلام بمسميات جديدة (كأهل قباء) و (أهل المدينة) و (أهل الطائف) ولهذا الاتجاه دلالاته الحضارية والاستيطانية. واختلفت أسباب نشأة المدن الأخرى التي لم تكن حواضر الملك أو مراكز الإدارة، وتنوعت هذه الأسباب وارتبطت بعوامل كثيرة منها اقتصادية وأخرى حربية ودينية واجتماعية وسياسية وبدأت المدينة بنواة عمرانية ثم تطورت وازدهرت واتسعت بفضل توفر المقومات الحضارية.

لقد كانت القرون الوسطى، وبصورة خاصة القرن الثامن والتاسع والعاشر مرحلة مهمة في تاريخ المدن التي أسسها العرب في العالم الإسلامي ومنها العراق وهناك من يدعي أن المدن التي أوجدها المسلمون خارج جزيرة العرب قد يزيد عن مائتي مدينة خلال حكمهم الطويل في دور الخلفاء الراشدين والعهد الأموي والعباسي وفي دور الدويلات الإسلامية فضلاً عن القلاع والحصون والأسياف¹، والأسواق بعضها أصبحت مدن وبقيت تحمل

(1) الأسياف: يقصد بها تاريخياً السواحل والشواطئ.

أسماءها الأولى. كما انتبه المسلمون إلى تعمیر ما خرب من المدن وتجديدها ومن الطبيعي كان نصيب العراق من هذه الحركة العمرانية الحضرية كالبصرة.

ورغم الاهتمام الإسلامي الواضح في طبيعة المدن الإسلامية خلال الفتوحات، وتأسيسها بشكل مدروس لجهة تحديد موقع كل منها وحجمها لتحقيق وظائفها، إلا أنهم وبنفس الوقت لم يهتموا المدن التي كانت موجودة قبل الإسلام بل على العكس أيضاً حاولوا الاهتمام بها والتركيز عليها واخضاعها أيضاً للشكل الإسلامي الذي كانت تدار به المدن التي تم تشييدها وهنا مثال على ذلك مدينة حلب التي تعد من أقدم المدن المأهولة والتي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد.

فمن الأهمية الوقوف عند طبيعة المدن الإسلامية ودراسة بعض هذه المدن وتبيان ظروف نشأتها وهيكلية العمرانية التي بنيت وفقها، وإظهار التغيرات التي طرأت عليها خلال العصور اللاحقة، وتبيان معالمها التاريخية والإرث الحضاري الذي بقي موجود فيها حالياً. وقد ركز الباحث في هذا البحث على دراسة ثلاثة من المدن الإسلامية وهي: مدينة دمشق، ومدينة البصرة، ومدينة حلب.

أولاً- أهمية البحث: تبرز أهمية البحث من كونه يتطرق إلى دراسة بعض المدن الإسلامية ذات الأهمية الكبرى كالبصرة ودمشق وحلب، ولهذه المدن دور مهم خلال الفترات التاريخية التي شيدت فيها. فكانت مركزاً لإدارات الحكم الإسلامي، ومقراً للجيوش العربية الإسلامية خلال الفتوحات، وكان لها دور هام في تعزيز البعد الإسلامي ونشر الدين السمح بين الأمصار الأخرى. لذا من الأهمية الوقوف عند طبيعة المدن وكيفية بنائها وتشييدها خلال تلك الفترة وتبيان أوجه التشابه والاختلاف بينها.

ثانياً- أسئلة البحث: يسعى هذا البحث إلى الإجابة على التساؤلات الآتية:

1. هل كانت طبيعة الظروف التي نشأت فيها المدن الإسلامية متشابهة وما العوامل التي دفعت إلى تأسيسها؟
2. ما الأهمية الاستراتيجية للمدن المدروسة ودورها خلال القرون الماضية؟
3. ما أبرز المعالم التاريخية والأثرية الموجودة في المدن الإسلامية؟
4. ما أوجه التشابه والاختلاف بين المدن المدروسة لمعرفة الآلية التي بنيت فيها؟

ثالثاً- أهداف البحث: يهدف البحث إلى ما يلي:

1. معرفة الظروف التي نشأت فيها المدن الإسلامية الخمسة محل الدراسة والعوامل التي دفعت إلى تأسيسها.
2. تبيان الأهمية الاستراتيجية للمدن المدروسة ودورها خلال القرون الماضية.
3. إظهار أبرز المعالم التاريخية والأثرية الموجودة في المدن الخمسة.

4. تبيان أوجه التشابه والاختلاف بين المدن المدروسة لمعرفة الآلية التي بنيت فيها هذه المدن.

رابعاً - منهجية البحث: اعتمد الباحث على المنهج التاريخي لملائمة لطبيعة البحث التاريخية والتي تحتاج العودة إلى مصادر ومراجع قديمة تبين طبيعة تكوين المدن الإسلامية محل الدراسة، كما تم الاعتماد على المنهج المقارن في تبيان أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها.

خامساً - تقسيم البحث: قسم هذا البحث إلى أربعة مباحث، في المباحث الثلاثة الأولى، تمت دراسة كل مدينة منها (دمشق، والبصرة، وحلب)، من جهة طبيعة التأسيس وتبيان الأهمية الاستراتيجية وأبرز المعالم الأثرية فيها. وفي المبحث الرابع تم تبيان أوجه التشابه والاختلاف بين هذه المدن. وفي الخاتمة تم صياغة النتائج التي تم التوصل إليها والإجابة على تساؤلات البحث الرئيسية.

المبحث الأول: مدينة دمشق

تكتسب مدينة دمشق أهمية تاريخية كونها من أقدم المدن المأهولة، ويعود تاريخ تأسيسها تسعة آلاف سنة قبل الميلاد أو أكثر، كما دلت الحفريات بالقرب منها في موقع تل الرماد، ويذكر الباحثون إنها أقدم مدينة وعاصمة في التاريخ، كانت عاصمة منذ فجر التاريخ ولعدة حضارات في فترات تاريخية مختلفة، وورد ذكرها في النصوص المصرية والآشورية بوصفها مركزاً اقتصادياً وسياسياً معروفاً في الشرق القديم. وقد كانت دمشق المملكة الآرامية في وقتها أهم دولة في سورية وأكثرها قوة. قاومت الآشوريين أنفسهم قبل أن يستطيعوا تدميرها عام 732 ق.م.

وأعطى الموقع الجغرافي للمدينة أهمية استراتيجية كونها مركزاً التقت فيه الطرق التجارية بين الشرق والغرب وبين أفريقيا وآسيا، ونظراً لأهمية مدينة دمشق التاريخية فقد سُجِّلَت العديد من المواقع الأثرية في المدينة على لائحة التراث العالمي منذ سبعينيات القرن العشرين.

أولاً- الموقع والمساحة والأهمية التاريخية: تمتاز مدينة دمشق القديمة بثروة حضارية مية ففيها عدد كبير من العناصر ذات القيمة التاريخية الكبيرة والأوابد والأبنية ذات القيمة المعمارية الفائقة والمنجزات الزخرفية. وتقع مدينة دمشق في النطاق شبه المداري وبلغ ارتفاعها 700م عن سطح البحر وهي تقع في الجنوب الغربي الأوسط في سورية، ويمر فيها خط العرض 30-33 شمالاً، وخط الاستواء وخط الطول 17-36 شرقي غرينتش (عيسى، 2002، ص ص: 21-22).

ولقد شيدت المدينة عند المنحدرات الشرقية لجبال لبنان الشرقية في بداية السيول الممتدة نحو الشمال الشرقي حتى الفرات وجنوباً حتى الجزيرة العربية، لذلك تركز فيها منذ القديم النشاط الاقتصادي من زراعة وتجارة،

بحيث كانت ممراً للقوافل التجارية على طريق الحرير، وهي تبعد عن البحر المتوسط مسافة 80 كم تقريباً في خط مستقيم (موسى، 1995، ص: 13).

تعد مدينة دمشق واحدة من أقدم المدن المأهولة بعد الطوفان (ابن عساكر، 1995، ص: 12)، وتبين الدراسات التاريخية أنّ الموضع الذي قامت عليه المدينة، هو الموقع الأصغر لها، وهو الحيز الذي تشغله المدينة فعلاً بأبنيتها وشوارعها وساحاتها، لقد كانت دمشق في البداية قرية صغيرة إلا أنها تنعم بنصيب وافر من الثراء والرخاء، وذلك عندما ظهرت المراكز الحضرية في حوض بردى، حيث أن الاستيطان البشري في حوض بردى قديم جداً، وتاريخ الزراعة في هذه المنطقة يرجع إلى ما قبل التاريخ فالحيوانات والنباتات في الغوطة تدل على تطورها القديم، كل ذلك وهب موضع دمشق ميزة هامة، وكان نهر بردى قد فرض موضع هذه القرية (أحمد، 2018، ص: 391).

وذهب البعض للقول: إن دمشق أقدم مدينة ظهرت على وجه الأرض؛ حيث يعود ظهورها إلى ما بعد عصر طوفان نوح عليه السلام ذاته؛ أي منذ حوالي تسعة آلاف عام - كما دلت الحفريات بالقرب من منها في موقع تل الرماد - وبذلك تعد هي والقدس في فلسطين والجيزة أو منف في مصر هي أقدم مدن العالم وقد جاء في (معجم البلدان) لياقوت الحموي إن أول حائط وضع في الأرض هو حائط دمشق. وكانت دمشق منذ بداية تاريخها منظمة ولها شوارع متعامدة تحيط بها الأسوار والأبواب، والتي كانت شديدة الأهمية في حماية المدينة وسكانها، وقد كان لسور دمشق سبعة أبواب في العهد الروماني، وكانت تزيد أو تنقص عن هذا العدد كلما جرى تجديد السور؛ حيث كان يجري سد أبواب وفتح أبواب أخرى، ويصف المؤرخ حسن البدر في كتابه "نزهة الإمام في محاسن الشام" أبواب دمشق القديمة هذه، والتي كانت تحتوي على صور للكواكب ومداراتها، بما يدل على تقدم أهل دمشق في علوم الفلك منذ قديم الزمان (سوفاجيه، 1936).

احتلت دمشق عبر تاريخها الحضاري مكانة متميزة في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، في العلم والثقافة والسياسة والفنون، ويعود تاريخ تطورها الثقافي والحضاري إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد أثبتت الأبحاث التاريخية أنّه في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وضع الملك الآرامي "ريزون" قواعد مملكته في دمشق، وأول تاريخ مدون لها يوضح أنّها كانت موطناً للآراميين - وهم من العرب العاربة وهم من أصول العرب - في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد. فتح العرب المسلمون دمشق عام 14 هـ / 635م - 636م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجيش من أبرز قادته أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد، وقد ازداد تألقها الحضاري عندما أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية في العام 41 هـ 661م في عهد الدولة الأموية الأولى، حيث دخلت الجيوش العربية الإسلامية دمشق في القرن السابع الميلادي لكي تتحول المدينة إلى عاصمة للإمبراطورية الإسلامية الكبرى التي امتدت إلى حدود الصين شرقاً وإلى مياه المحيط الأطلنطي غرباً في العصر

الأموي ازدادت مساحة العمران في دمشق، وشهدت المدينة العمارة الإسلامية على أصولها ممثلة في قصور الخلافة الأموية والجوامع الكبيرة، وكان من أهم مباني تلك الفترة الجامع الأموي الكبير الذي بني في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وهو أحد أجمل المباني العربية الإسلامية في العالم، وجرى بناؤه على نموذج المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة (صبري، د.ت.ن، ص: 15).

ثانياً- المعالم التاريخية في مدينة دمشق: يقدم ابراهيم بن محمد الفارسي في كتابه أواسط القرن الرابع الهجري، مبيئاً لنا المعالم الرئيسة للمدينة: الأرض والأشجار والمياه، وهو يصف مسجدها الكبير الذي «ليس في الإسلام أعمر ولا أكبر بقعة منه، ويضيف الهروي علي بن أبي بكر الموصلي وهو سائح مشهور من القرن السادس الهجري في كتابه (الإشارات في معرفة الزيارات) المزيد من وصف المدينة، مقدماً الملامح الخارجية لمدينة دمشق وما يحيط فيها من جبل قاسيون، وجبل بردة (برزة)، إضافة إلى قرى وسهول المزه، وبرزة وعذراء، وراوية، وهو في كل ذلك يقدم ملامح تلك المعالم على ما فيها وبخاصة ما اتصل بروايات وفيات الصحابة والتابعين، وبأخبار الأنبياء وهي كثيرة، تتجاوز ظاهر المدينة إلى أحيائها ومن مر بها أو دفن فيها من كبار المسلمين (يحيى، وزيري، 2004، ص: 47).

1 - الأبواب الأثرية: طيلة تاريخ المدينة لم يزد عدد أبوابها على العشرة هي؛ في الجهة الشمالية أربعة أبواب وهي: (باب توما، وباب الفرج، وباب الجنيق، وباب الفراديس)، وفي الجهة الجنوبية بابان؛ هما: (باب كيسان، وباب الصغير)، وبالجهة الشرقية بابان هما: (باب شرقي، وباب السلام)، وأخيراً وفي الجهة الغربية هناك بابان: "باب الجابية، وباب النصر" (صبري، د.ت.ن، ص: 14)، ومن بين هذه الأبواب السبعة (جود الله، 1999، ص: 423-424):

- **باب شرقي:** يقع شرقي المدينة عند بداية الشارع المستقيم ومنو دخل خالد بن الوليد فاتحاً دمشق، بني أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي، ويتألف من ثلاثة فتحات مقوسة الوسطى كبيرة والفتحات الشمالية والجنوبية أصغر وقد سدت الفتحتان الوسطى والجنوبية في العيد الإسلامي وذلك من أجل التحصين والحماية وتركت الشمالية مفتوحة ويقدر ارتفاعها نحو 292 سم وعرضها 288 سم.
- **باب الجابية:** وهو الباب الغربي لسور دمشق وسمي بذلك نسبة إلى القرية القريبة من دمشق، ومنه نزل أبو عبيدة بن الجراح، كان بثلاثة أبواب الأوسط كبير وعمى طرفيه بابان صغيران، وهذا الباب مبني بحجارة ضخمة وأصبح باب سوق النسوان، وينسب إلى كوكب المريخ.
- **باب توما:** وهو يقع في الجية الشمالية من سور دمشق، ارتفاعه الحالي 438 سم وعرضه 322 سم، وسماكته 7م، نزل عليه عمر بن العاص أو شر حبيب بن حسنة عند فتح دمشق، وقد بناه الرومان ونسبه اليونان إلى كوكب الزهرة.

2 - الجامع الأموي: الجامع الكبير كان في السابق كنيسة؛ وهي الكنيسة المعمدانية حيث أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتحويلها إلى مسجد، وهناك آثار مسيحية ظاهرة للعيان في المسجد لم تهدم بفضل سماحة الإسلام والفاتحين المسلمين؛ حيث يحتوي المسجد على ما يعتقد أنه ضريح النبي يحيى عليه وصفاً عاماً لدمشق «الأقاليم» السلام (يحيى، ووزيري، 2004، ص: 47).

ويعد الجامع الأموي من أكبر المساجد في بلاد الشام ويقع في قلب دمشق الفخاء في نهاية سوق الحميدية الأثري وبالقرب من قلعة دمشق التاريخية، ويعدّه المؤرخون واحداً من أشهر المعالم الإسلامية في العالم، ويتميز هذا الجامع الذي بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك 86-96 هـ في القرن الثامن الميلادي (بين 705-715 م)، باتساعه وضخامته وهندسة معمارية إسلامية فنية رائعة الجمال، إضافة إلى قبته الضخمة ومآذنه الثلاث الشامخة ولوحاته الفسيفسائية النادرة التي تعد من روائع الفنون الشرقية، وهو مثال حي على الطراز المعماري العريق الذي لا يزال حاضراً في وجدان المدينة حياً لا يموت منذ مئات السنين، لقد ظل الجامع الأموي شامخاً على مر العصور على الرغم ما تعرض له من أذى وحرق.. وقد رُمّ عدة مرات فازداد بناؤه رونقاً وروعة وجماًلاً (صبري، د.ت.ن، ص: 15). حيث يكتسب الجامع الأموي أهمية دينية كبرى لدى المسلمين إذ يحتوي على ضريح (النبي يحيى عليه السلام) والبطل المسلم قاهر الصليبيين (صلاح الدين الأيوبي) وفي الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد مشهد الحسين الذي يضم بداخله رأس أبي عبد الله الحسين شهيد كربلاء (ع).

3 - قلعة دمشق: تقع قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية من دمشق الحديثة إلى الشمال من النصف الغربي من سوق الحميدية ممتدة من سوق الحميدية جنوباً حتى نهر بردى شمالاً ومن شارع أبي عصرون شرقاً وحتى شارع الثورة غرباً بطول شرق-غرب 220 م، وعرض شمال-جنوب 160 م (حسن، 1999، ص: 52-53). وتبلغ المساحة التي تقوم عليها القلعة بنحو 33176 وهي ذات شكل مستطيل ذي أضلاع غير مستقيمة ويبلغ طولياً 240-250 م، وعرضها 165-220 م، ويحيطها من الخارج سور منيع ذو أبراج مربعة ضخمة يبلغ عددها 12 برجاً (جود الله، 1999، ص: 168).

وكانت القلعة حصناً عسكرياً هاماً ومقراً للسلطين الأيوبيين وكانت تمارس فيها جميع النشاطات السياسية والاجتماعية وفي العصر المملوكي 659-922 هـ/ 1260-1516 م، أصبحت مقراً لنواب السلطنة ولقد لعبت القلعة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة وخاصة عند غزو التتار 1259 م لكنها سقطت أيام عنف ضربات المنجنيق وقد عني الملك الظاهر بيبرس بترميمها، ولقد استعملت أسلحة مختلفة في الدفاع عن القلعة من أهمها المنجنيق الذي يقذف الحجارة الكبيرة أو المدفع الذي يستعمل كحل البارود ثم قوارير النفط والنشاب، وللقلعة صندوق مال مستقل وفيها مخازن للمؤن وسجن ومسجد وطاحون عدا القصور والبيوت وفي العصر

العثماني أصبحت القمعة مقراً للإنكشارية والداليا ويرأسها آغا القلعة (قماش، وأحمد، 2018، ص: 395-396).

وفي القرن الحادي والعشرين، أصبحت دمشق وضواحيها المعاصرة من التكتلات الحضرية الكبرى في المشرق العربي، تضم أكثر من 8,3 مليون نسمة بحسب إحصائيات عام 2010، يشكلون نحو خمس سكان القطر، ونحو 35% من سكان مدنو، وأكثر من 84% من سكان إقليم دمشق (قدور، 2016، ص: 199). وخلصت إحدى الدراسات الحديثة إلى تقسيم مدينة دمشق وريفها إلى أربعة مناطق وهي، مع مقترحات لتطويرها وهي (قدور، 2016، ص: 210):

1. **المنطقة الأولى:** وهي منطقة دمشق الكبرى، تمتد من المركز باتجاه الأطراف نحو 10 كم، وتشمل المنطقة المركزية للمدينة، وتضم دمشق الحالية وزملكا وعربين وعين ترما وجرمانا وبيت سحم وحرستا، ومسرابا، وحمورية، وكفر بطنا، والمليحة، وعقربا، وببيلا، وقبر الست، وبلدا، والحجر الأسود، والسبينة، وقدسيا، والهامة، ومعربا، وداريا.

2. **المنطقة الثانية:** هي منطقة الضواحي، وتمتد بين (10 - 20) كم، وتضم مناطق الغوطتين.

3. **المنطقة الثالثة:** تمتد بين (20 - 25) كم، وفيها يجب إقامة الحزام الأخضر الخارجي.

4. **المنطقة الرابعة:** تمتد أكثر من 25 كم. وتشمل بقية ريف دمشق، ويمكن فيها تطوير المناطق الرعوية وتنمية الثروة الحيوانية بما يتلاءم مع البيئة ومواردها الطبيعية والاقتصادية مع إقامة المدن الصناعية في مناطق القطيفة والنبك وبيروود وعلى امتداد الحدود السورية اللبنانية. وتطوير السياحة في مناطق الزبداني ومعلولا وصيدنايا، وفي بقية المناطق الأثرية في محافظة ريف دمشق.

4 - القصور والحمامات والأسواق: إضافة إلى ذلك، يوجد في مدينة دمشق العديد من المعالم التاريخية الأخرى، كالبيوت والقصور القيمة، ومنها قصر النعسان، وبيت جبري، وبيت النظام، ودار يوسف عنبر، وقصر العظم. كما ويوجد العديد من الحمامات التاريخية القديمة، والتي تختفي بين الأبنية حيث لا يميزها عنها من الخارج سوى ارتفاع أسطحها القبابية بزجاجها ومداخلها العالية عن مستوى سطوح الدور المنخفضة المجاورة وفي أحيان قليلة كبر نسبي في أبوابها الخارجية وهذه الحمامات الكثيرة والواسعة الغزيرة المياه قد خصها السياح والزوار الأجانب بقدر كبير من العناية في كتاباتهم وأسهبوا في وصفها وعملها (قماش، وأحمد، 2018، ص: 395-396). ومن أشهر الحمامات الأثرية العاملة الآن: (حمام عز الدين في باب سريجة، وحمام البكري في جادة النحوي في منطقة باب توما، وحمام النوفرة عند أسفل باب جيرون، وحمام الجورة في أول شارع الجورة بباب توما، وحمام الملك الظاهر يقع في باب البريد شمال دار الكتب الظاهرية، وحمام القرمان في سوق العتيق بجادة القرمان).

وهو حمام أثري قديم، وحمام الورد في سوق ساروجه في جادة الورد، وحمام القيمرية في جادة الحمام المتفرعة من شارع القيمرية... وغيرها" (قماش، وأحمد، 2018، ص: 395-396).

أما بالنسبة لأسواق المدينة، فهي عديدة، ومنها سوق الحميدية وهو أكبر أسواق دمشق وأشهرها وأقدمها، فهو يخترق مدينة دمشق القديمة من باب السعادة القديم جنوبي القلعة وحتى الجامع الأموي، ويمتد بطول 600 متر وعرض 15 متر، أما ارتفاعه يصل إلى 10 أمتار ويعود بنائه إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وكذلك سوق مدحت باشا، يعرف بالسوق الطويل ويلي سوق الحميدية بالأهمية وكان يسمى سوق جقمق باشا، ويتفرع منه من جهة الشمال (سوق الجوخ وسوق الخياطين وسوق البزورية) ومن الجنوب (سوق السكرية سوق الدقاقين)، وهذا السوق مسقوف بسقف مقوس مصنوع من الحديد والتوتياء ويمتاز بثقوبه الكثيرة كما ترتصف على جانبيه المحلات التجارية (قماش، وأحمد، 2018، ص: 395-396).

إن الموقع الجغرافي الطبيعي للمدينة قد منحها تميزاً وتفرداً استطاع الإنسان عبر العصور استغلاله لمصلحته ولمصلحة المدينة من حيث استثماره لمواردها الطبيعية المتمثلة بغنى ظهيرها الجغرافي وكذلك الموارد البشرية والموارد السياحية المتمثلة أيضاً بما خلفه الإنسان من آثار وصروح عبر التاريخ، وهي تمثل أهمية تاريخية حيث تشكل دمشق القديمة إرث حضاري وتاريخي مزيد لمنجزات المعاصرين في ميادين الاقتصاد والبناء التي هي شواهد على روعة الماضي التي لا يوجد لها مثيل.

المبحث الثاني: مدينة البصرة

اكتسبت مدينة البصرة في العراق أهمية تاريخية كبيرة كونها تطل على الخليج العربي وتمثل محط اتصال مع شبه الجزيرة العربية، وتعد المدينة من أهم المدن الإسلامية تاريخياً، كونها من أولى المدن العربية إلى جانب مدينة الكوفة، التي تأسست خارج شبه الجزيرة العربية. ولقد نشأت هذه المدينة في موقع الزبير الحالية أي على حافة الصحراء وقد أجبرت الصحراء السكان على التوسع نحو مصادر المياه وخاصة دجلة والفرات وشط العرب فكان توسع المدينة باتجاه شرقي وشمال شرقي إلى الحدود الإيرانية وجنوبي حتى الخليج العربي وتحديدًا إلى مدينة الفاو، وقد نمت البصرة وفق نظرية النوى المتعددة على ثلاثة نوى هي: (البصرة القديمة والعشار والمعل). لذا، سيتم في هذا الفصل دراسة المدينة من مختلف الجوانب الجغرافية، والتاريخية، والعمرانية.

أولاً- التسمية والتأسيس والأهمية: ذكرت بعض الآراء إن (البصرة) تعني الأرض الصلبة المائلة للسواد، وعندما دخلها المسلمون قالوا (أن هذه لبصرة) يعنون بذلك قوة صلبة (الدينوري، 1987، ص: 11. الجوهري، 1987، ص: 591)، وكانت قبل الفتح الإسلامي تسمى أرض الهند وهي تسمية تطلق على الإبل⁽²⁾ أو أرض الخريبة.

وتُعد مدينة البصرة أول مدينة انشأها العرب بالعراق في العصر الإسلامي (حسين، 1973، ص: 25)، وهي أول ولاية تأسست خارج حدود الجزيرة العربية وجاء بنائها نتيجة استمرار حركات التحرير واتساعها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، إلى التفكير في البحث عن مقرات دائمة لاستقرار الجند المقاتلة الذين كانوا يخوضون المعارك في جبهات العراق والشام ومصر (الجزائري، 2009، ص: 238)، ويعود تاريخ تأسيس البصرة إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب في سنة (16هـ / 637 م)⁽³⁾، وتولى بنائها القائد المسلم عتبة بن غزوان بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، ولما مات عتبة بن غزوان ولى عليها الخليفة عمر - رضي الله عنه - المغيرة بن شعبه ثم عزله وولى أبا موسى الأشعري، وفي ولايته شب حريق بالبصرة أتى على أكثر بيوتها. وفي خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عزل أبا موسى الأشعري سنة 39 هـ وعين مكانه عبد الله بن عامر (البصرة مدينة العلم والعلماء، 2007).

ونظراً لأهمية العامل العسكري الذي كان سبباً وعاملاً مهماً في بناء المدينة، لكي يتخذ العرب المجاهدون قاعدة منها لإسناد وجودهم في المنطقة، ثم الانطلاق منها إلى المناطق الشرقية التي تتواجد فيها القوات الفارسية، وتمكين القوات العربية أن تتخذ لها مواقع في العراق تمهيداً لتفتيت القوات الفارسية (ابن عبدالحكيم، 1977، ص: 133). وتشير بعض الدراسات التاريخية أن هناك مجموعة من الأدلة تدل على فاعلية العوامل العسكرية في اتخاذ مدينة البصرة خلال المرحلة التأسيسية على الأقل، حيث تتفق آراء عدة مؤرخين على أن عتبة نزل ومقاتليه في خيم أو أخبية وقباب، ويذكر البلاذري أنهم أقاموا بالبصرة وهذا ما يعني أنهم ليسوا مالكين لأبنية فيها، وبالتالي المخيم الذي قاموا فيه هو مخيم عسكري، وحينما نجح عتبة في هجماته رأى أهمية موضع المخيم استراتيجياً، في حروبه ضد الفرس فكتب إلى الخليفة عمر بضرورة اتخاذ الموضع ليجمع في العرب، كونها تتميز بقربها من منابع المياه، ويقع مكانها على طرف البر وتكثر فيها القصب والقضبة (ناجي، 2001، ص: 158-159).

وتعد مدينة البصرة من أقدم المدن الإسلامية، وهي مدينة عراقية تقع جنوبي العراق بالقرب من النقاء نهري دجلة والفرات على بعد 130 كم من الخليج العربي، وبذلك فهي تقع في النصف الشمالي من الكرة

(2) الإبل من مناطق جنوب العراق تابعة للسيطرة الفارسية قبل الفتح الإسلامي وهي تمثل القاعدة العسكرية للقوات الفارسية في جنوب العراق، لقرب الخليج العربي ونهر دجلة منها تميزت بوفرة خيراتها، ينظر: الكوفي، وبن أعثم، 1991، ص: 74-75).

(3) ورد في روايات أخرى: (14هـ/636م) وكانت تسمى رحبة بني هاشم.. للمزيد انظر: (الأعظمي، 2012، ص: 12).

الأرضية، وفي المنطقة المعتدلة الدافئة، تسقط على البصرة كمية من الأمطار لا تزيد على 100 ملم في السنة، ويبلغ ارتفاع البصرة عن مستوى سطح البحر حوالي 8 أقدام فقط (2,4م)، وتتميز بموقعها الجغرافي الهام حيث تعد البوابة الرئيسية للعراق من جهة الجنوب مع دول العالم المختلفة.

ويمثل موقع البصرة نقطة التقاء شط العرب برأس الخليج العربي حيث تتجمع الطرق في جنوب العراق. تعتبر المدينة الثانية في العراق بعد العاصمة بغداد يتجاوز سكانها 2600000 (مليونين وستمئة ألف) نسمة بحسب تعداد عام 2003. وكانت منطقة البصرة قبل ان يشرع العرب بتمصيرها تشمل سبع قرى قديمة، في الخريبة اثنتان وبالزابوقة واحدة وفي بني تميم اثنتان وفي الازد اثنتان، وكانت هذه الدساكر السبعة مأهولة وذات منازل ثابتة وقد حدد "ماسنيون" مواقع هذه الدساكر، الا انها تحولت الى خمس مناطق عسكرية قبلية تدعى الأخماس في العصر الإسلامي (علي، 2012، ص: 197).

وقد بنيت البصرة في أول الأمر على شكل معسكر يسهل اتصاله برياً بشبه الجزيرة العربية بما لا يسمح بوجود حاجز مائي بين جيش المسلمين من ناحية والاتصال البري بقاعدة الإسلام في المدينة المنورة من ناحية أخرى، بناء على الأفكار التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في اختيار مواضع المدن وقد أوصى قواده بإتباعها وتنفيذها، وبذلك توفرت بعض الصفات الأخرى وهي قربها من منافع الماء ووقوعها على طرف البر وكثرة القصب البردي (البلاذلي، 1984، ص: 358). بالإضافة إلى موقعها العسكري الذي يرتبط بظهر الجزيرة العربية اذ يصل لها الإمداد العسكري دون عائق وهذه ميزة أخرى لموضع البصرة القديم تبرز أهميته العسكرية كأحسن نموذج للاستراتيجية الحربية، حيث وجود الخليج العربي في جنوبها وشط العرب في شرقها والفرات في شمالها، وتؤلف خطوط دفاع عن المدينة ضد الأعداء (العيداني، 1983، ص: 55).

ثانياً- الطبيعة العمرانية والأبنية: اشتهرت البصرة فيما بعد بقصورها الكبيرة وبساتينها الواسعة الجميلة التي كانت تضرب الأمثال بجمالها، وسرعان ما بدأ سكان البصرة بالازدياد، وبدأت جموع الناس تقصدها، وتستوطن بها. وإنَّ الموقع الجغرافي للمدينة كل مستلزمات البناء من القصب والبردي لقبها من الأهوار فضلاً عن اللبن والطين، وكان اختيار مادة اللبن ليس اعتباطاً بل استخدم لأنه مادة متماسكة وقوية ذات صفات جيدة ملائمة لمناخ البيئة الصحراوية اما الحائط العريض فسوف يؤدي إلى تقليل أثر الحرارة العالية في مدينة البصرة، وهذا يدل على وعي العرب لظروف البيئة الجغرافية واستجابتهم لها وتقيدهم بعامل المناخ في تحديد مواد البناء المستخدمة (علي، 2012، ص: 209).

وقد بنى المسجد (الجامع) وكذلك دار الإمارة وكان المنبر في وسطه وكما قلنا بداية البناء كان من القصب بعدها باللبن وبعدها بنى المسجد بالجص وسقفه بالساج ودار الإمارة باللبن، وكانت الحمامات لا تبني في البصرة الا بأذن الولاة وبنى الناس حول المسجد وكان بناء المسجد على شكل مربع وذلك على أيام أبي موسى عندما تولى ولايتها (الحموي، د.ت.ن، ص ص: 433-435).

ومع ازدياد عدد سكان المدينة شهدت تطوراً عمرانياً سريعاً في البنيات والعمران، وبمرور الزمن أصبحت مدينة البصرة مدينة كبيرة ذات مساحة عظيمة، بفضل جهود عدد من العلماء والحكماء التي تضافرت جهودهم في عملية تطوير وتخطيط المدينة. وصممت المدينة مع تطورها وفق التخطيط الذي بنيت عليه المدن الإسلامية، حيث يخضع تخطيط المدينة الإسلامية لقواعد عامة محددة تبرز من بينها ثلاث قواعد أولها **المسجد الجامع** الذي أعطى للمدينة طابعها الإسلامي وثانيها **دار الإمارة** وهي قصر الحكم وإدارة الدولة وثالثاً **خطة المدينة** التي تشمل توزيع استعمالات الأرض المختلفة داخل المدينة (عثمان، 2008، ص: 28). وكانت هذه المراكز الثلاثة للمدينة الإسلامية موجودة في مدينة البصرة كالأتي (ناجي، 2001، ص: 161-162-163):

1. **المسجد الجامع:** وهو أول وحدة عمرانية تأسست في البصرة، وذلك على يد عبة ابن غزوان بتاريخ (14 هـ - 635م) وقيل آخرون أنه أمر نافع ابن الحارث الثقفي ببنائه، وبني بداية من القصب، ثم أعيد بنائه بالبلن والطين خلال ولاية أبو موسى الأشعري أي بعد ثلاث سنوات من تأسيسه، ثم قام بتوسيعه. ثم تعرض الجامع لاحقاً إلى توسعات عدة وأكبرها كانت خلال العصر العباسي سنة (161 هـ - 777م)، وتعرض لاحقاً للتخريب خلال هجمات الزنج والقرامطة على مدينة البصرة، ثم أعيد تأهيله لاحقاً، وكان له 18 باباً منها باب جدد وباب عثمان وباب الرحبة، وتعد منارته أول منارة في الإسلام وأنها بنيت عام (45 هـ - 665م)، أما منبره كان في مقدمة المسجد، ويوجد فيه ميضأة.
2. **دار الإمارة:** تم تأسيسها بعد تعيين وتخطيط الجامع وبني إلى جانبها السجن والديوان، وكان بناؤها من القصب، ثم تحولت إلى اللبن بعد سنوات خلال ولاية الأشعري، ثم لاحقاً لم تكن الإمارة هي منزل أمير الإمارة حيث كان لأمر البصرة عبيد الله ابن زياد قصراً بعيداً عن المسجد تدعى البيضاء، ثم قام الحاج الثقفي بعد توليه إمارة العراق بهدم الإمارة الملاصقة للمسجد وبقيت المدنية دون دار إمارة حتى عاد صالح ابن عبد الرحمن ببنائها من الآجر والجص. ثم أدخلت في الجامع في عهد هارون الرشيد وانتهى دورها.
3. **خطط المدينة (الأهالي):** في تأسيسها كانت تشبه المدينة المنورة ومكة، وأصبحت لاحقاً نموذجاً للمدن الإسلامية الأخرى كالكوفة والقيروان والفسطاط. وقد المناطق السكنية في البصرة وفق القاعدة الأساسية التي كانت قبلية شخصية في آن واحد وهي عادة تكون موزعة على شكل محلات سكنية واقعة على شوارع وازقة ملتوية، إذ أن فكرة التخطيط العربي الإسلامي تقوم على تقسيم المدينة إلى محلات سكنية تسكنها عشيرة واحدة نتيجة لتأثير النظام الاجتماعي القبلي حيث كانت النظم السائدة فيها قائمة على أسس قبلية، حيث خططت منازل القبائل التي استقرت في مدينة البصرة وقسمت إلى خمس أخماس يضم كل خمس عدد من العشائر وزعت على السكان حسب انتماءاتهم القبلية وهي: (خمس بني تميم، وخمس أهل العالية، خمس بكر ابن وائل - خمس عبد القيس - خمس الأزد).

فقد أصبحت البصرة في نهاية القرن الأول الهجري من أقدم موانئ الخليج العربي وإحدى أمهات مدن العراق الشهيرة الذكر في الأفاق الفسيحة الإرجاء، وكان إلى جانب هذا مركز من مراكز العلم واشتهرت مدرستها النحوية بذكر تعارض ما قدمته مدارس أخرى قديمة. كما لعبت البصرة دوراً بارزاً في التاريخ العربي الإسلامي بماضيها العريق ورصيده الزاخر بأمجاد العلم والأدب وموطن المريد الشعري ومحل اجتهد الأدباء والشعراء كالفرايدي والحسن البصري وابن الجوزي والأصمعي وابن سيرين والسياب وغيرهم (تحسين مي، 2005، ص: 35).

أما الأسواق فيأتي موقعها في المنتصف وبالقرب المسجد الجامع ودار الإمارة ليكون قريباً إلى جميع سكان المدينة في جميع جهاتها ويكون قريباً من المسجد أيضاً، و (الأسواق) هي من أهم العناصر التخطيطية التي ارتبطت بالمكان والإنسان في المدينة الإسلامية التقليدية، وقد اتسعت بسمة الاستمرار العضوي في نطاق الكيان الطبيعي للمدينة وهي تتركز في المنطقة المحيطة للمسجد الجامع، وتمتد باتجاه محاور الحركة الرئيسية المتجهة نحو بوابات المدينة، وبعد نمو ونضج المدينة استدعت الضرورة وجود أنماط ثانوية من التراكيب التجارية لتقدم أفضل الخدمات للسكان وببسر وفق نظام متسلسل متدرج، ومحلات البصرة الكثيرة وعديدة منها ما سمي بأسماء عربية ومنها أعجمية باسم الذين استوطنوا البصرة ودخلوا الإسلام فنزعوا منازل العرب واتبعوا عاداتهم واهم هذه الإحياء القديمة في البصرة هي: محلة البيضاء ومحلة حوض ومحلة الكلاء وفيها سوق البصرة ومحلة النحاسين ومحلة الاساور ... وغيرها من المحلات الأخرى (العباسي، 1970، ص ص: 147-148).

ثالثاً- الحياة الثقافية والفكرية في البصرة: كل موقع المدينة الاستراتيجي مقصداً للعديد من المفكرين والعلماء، مما جعل منها مكانة هامة في التراث العربي والإسلامي وحتى العالمي، وكان لتلك الحالة الثقافية والفكرية انعكاس حقيقي على الأوضاع السياسية والاجتماعية، فقد كانت التيارات المتصارعة السبب الرئيسي في البطيء الذي أصاب العرب وكذلك كان سبباً رئيسياً للانتقال إلى الحياة العصرية الناضجة. وشهدت مدينة البصرة نشاطاً كبيراً في هذا المجال بفضل جهود الصحابة الذين نزلوها منذ تمصيرها في بداية العصر الراشدي (11-41 هـ/632-661م)، مثل أبي موسى الأشعري (17-29 هـ/638-649م)، وعبد الله بن عباس (36-40 هـ/656-660م)، ومن تتلمذ على أيديهم من التابعين وأصبحوا علماء في هذا المجال، فكان لأبي موسى مجالسه وحلقاته العلمية في البصرة يقرأ للناس القرآن ويعلمهم قراءاته، ويوزع أتباعه وتلامذته في نواحيها يعلمون الناس كيفية قراءة القرآن وتأويله، كذلك عبد الله بن عباس كانت له مجالسه المماثلة في هذه المدينة لتعليم الناس قراءة القرآن (الطبراني، 1984، ص: 263؛ والطبرسي، 1995، ص: 5)

وتشير إحدى الدراسات إلى أنّ التعليم الديني وحفظ القرآن الكريم في البصرة كان بدأ خلال فترة إمارة يد أبو موسى الأشعري، وهو من أهم أوجه النشاط الثقافي في المدينة، وقد بلغ عدد القراء فيها 300 قارئ قبل أن يغادرها الأشعري (الجيزاني، 2009، ص ص: 245-246).

ثم حل العصر الأموي (41-132 هـ/661-749م) فبرز عدة علماء في هذا الجانب، وكل منهم أصبح له حلقات يدرس فيها القرآن وأسلوب القراءة وضبطها (الثعلبي، 2002، ص78-79). وأول من برز من التابعين في البصرة ممن كان يقرأ القرآن على الإمام علي عليه السلام وعبد الله بن عباس، هو أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان (ت: 69 هـ/688م)، ولد قبل الهجرة ويعد واضع علم النحو الذي أخذ أصوله وقواعده من الإمام علي عليه السلام، وأول من نقط المصحف وميز بين الأفعال والأسماء وبين الحروف مثل الجيم والحاء والسين والشين.. الخ (المزي، 1985، ص: 37-39)، عرف بمجالسة العلمية في قراءة القرآن بالبصرة (خليفة، و بن كاتب جلبي، د. ت. ن، ص: 712)، وقد سار على هذا النهج عدد من علماء البصرة بعد أبي الأسود الدؤلي أبرزهم: واصل بن عطاء البصري المعروف بالغزال (ت: 131 هـ/748م) من علماء البصرة وزهاؤها، كان عالماً بالقرآن والقراءات من أصحاب المذاهب الكلامية، إنشق عن أستاذه الحسن البصري (ت: 110 هـ/728م)، وذلك لقوله: (الفاسق لا مؤمن ولا كافر)، فسمي مذهبه بالاعتزال لاعتزاله الحسن البصري، واشتهر هذا المذهب وأصبح له أتباع، تتلمذ على يده الكثير من علماء البصرة (الصفدي، 2000، ص ص: 245-247)، صنف العديد من الكتب منها في القراءات "معاني القرآن" (البغدادى، د. ت. ن، ص: 500).

وأبو عمرو بن العلاء زيان بن عمار البصري (ت: 154 هـ/770م) من كبار علماء القرآن والقراءات ومن القراء السبع في العالم الإسلامي وعلماً باللغة والأدب على مستوى عالٍ، عرف بمجالسه العلمية الخاصة بالقرآن وقراءته وتتلمذ على يده العشرات من علماء البصرة، وكان العلماء يعرضون عليه القراءة ويعطي رأيه (ابن حيان البستي، 1973، ص ص: 345-346). ومن أبرز مصنفاته بالقراءات "كتاب القراءات" (ابن النديم، 1971، ص: 38).

من جهة أخرى، تنوعت المصادر المائية ووسائل الري في مدينة البصرة، فقد وصفت المدينة بكثرة مياهها، وقال عنها ابن حوقل: "أما البصرة فحواليها وداخلها ماء"، وهذه الثروة كانت من أهم مقومات الحياة الزراعية فيها، وعرف عنها بخصوبة أراضيها ونضارة قراها، وكثافة الزروع في معظم مناطقها مما أضفى عليها روعة وجمال فساعد ذلك على ظهور المدن والقرى الزراعية (عنتر، 2017، ص: 74).

المبحث الثالث: مدينة حلب

تقع مدينة حلب في بلاد الشام وهي من أهم المدن السورية وتعد العاصمة الاقتصادية للبلاد حالياً، وتعد المدينة من أقدم المدن في التاريخ، ويرى البعض أنه لا يضاهيها أي مدينة أخرى في القدم والديمومة، كمدينة مزدهرة ومأهولة. وتبين العديد من الدراسات التاريخية أن أهم عامل في ديمومة حلب هو دون شك موقعها في البرزخ السوري، على الممر الأقصر بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي عبر نهر الفرات، ملتقى بين البحر المتوسط وآسيا وأفريقيا. فإبلا الواقعة على مسافة 75 كيلومتر جنوباً وسواها من المدن في العصر البرونزي

المشابهة لها في وضعها اختفت قديماً، في حين كان للبعض منها، القريب نسبياً من حلب أيضاً كأنطاكية وأفاميا، أهمية أكثر من حلب في العصور القديمة الكلاسيكية قبل تدهورها.

أولاً- لمحة حول تاريخ المدينة: تعود بدايات مدينة حلب إل غياهب عصور ما قبل التاريخ، وحاولت العديد من الدراسات التاريخية إثبات الفترة التي استقر فيها الإنسان في المدينة، وغالباً ما تعاد إلى الألف الخامس قبل الميلاد. إلا أنّ هناك دراسات تاريخية تعيد المدينة إلى الألف الثاني قبل الميلاد، أيام خضعت حلب تارة إلى مجال نفوذ مصر وتارة إلى مجال نفوذ الحثيين المنحدرين من آسيا الصغرى ومرة في مجال نفوذ بلاد الرافدين (هاينتر، وفيرت، 2007، ص ص: 44-45).

وفي الألف الأول قبل الميلاد وبالأخص في العهد السلوقي، تم توسيع المدينة وتأسيسها من جديد وأطلق عليها من قبل "سلوقس نيكاتور" ما بين 301 و 308 ق. م، اسم "بيرو"، وهو الاسم نفسه الذي حملته المدينة خلال فترة الحكم الروماني للمدينة، وتحت حكم البيزنطيين أطلق عليها اسمها القديم من جديد وفي عام 540 ميلادي تم احتلالها وتدميرها وسلبها وحرقها على يد الملك الساساني كسرى الأول "أنوشروان"، إلا أنه بعد وقت قصير من هذا الدمار أعيد بناء المدينة أيام حكم "جوستانيان" (هاينتر، وفيرت، 2007، ص ص: 44-45).

شكل انتقال المدينة إلى المسلمين مرحلة حاسمة في تاريخها حيث انتقلت إلى يد المسلمين بتاريخ 15 هـ/ 636 ميلادي، ولكن كانت أقل أهمية لدى المسلمين كونها كانت ملحقة بمدينة حمص (إقليم حمص) وفي العصر الأموي تراجع صيتها ونورها بسبب طغي صورة ونور مدينة دمشق التي كانت مركز الخلافة الأموية، ولكن رغم ذلك تم إنشاء فيها الجامع الأموي بتاريخ 705-715 ميلادي.

إنّ موقف الجيوش الإسلامية في حلب بعد افتتاحها، لا يشابه الموقف العسكري تجاه الفرس الساسانيين في العراق، ولا سيما فيما يتعلق الأمر بحاجة العرب الفاتحين إلى معسكرات إمداد وتموين، إذ أن العرب بعد موقعة اليرموك أفلحوا في فتح أجناد الشام الخمسة جميعاً وهي جند فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. وتقهر الروم من هذه المنطقة العربية فلم تبرز الحاجة إلى اتخاذ قواعد عسكرية تتوافر فيها صفات الأمصار وأن تكون على طرف البر وقريبة من الريف. فمدن حلب وحمص وقنسرين وغيرها من المدن التي كانت محاطة بأراض زراعية وهي فوق ذلك كله تتميز بحياة تمديدية مستقرة. كما أنها كانت مدن مأهولة في حين لم تكن البصرة والكوفة مثلاً موجودة قبل مجيء العرب إليها. وبقيت حلب تابعة إلى إدارة قنسرين حتى فترة حم سيف الدولة الحمداني عندما اتخذ منها مقراً لإدارة الحكم. وتمثل الشكل الإداري للمدينة بالآتي (ناجي، 2001، ص ص: 368-373):

1. المسجد الجامع: بعد دخول القائد العربي أبا عبيدة بن الجراح مدينة حلب قام ببناء المسجد الجامع في المدينة بجانب باب أنطاكية، صار يعرف لاحقاً باسم المسجد "الغضائري" نسبة إلى أحد الأولياء من أصحاب السري السقطي الذي قيل بأنه قد حج ماشياً من حلب إلى مكة 40 حجة. واستمر هذا المسجد

يلعب دور المسجد الجامع إلى ان تم بناء الجامع الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك أو سليمان بن عبد الملك.

2. السوق: شيد في حلب خلال فترة الحكم الروماني سوقاً كبيراً كان يسمى تجمع "قيسارية"، ثم تم لاحقاً نقله إلى مدينة قنسرين التي تم ابتنائها لأغراض عسكرية حتى أنه أطلق عليها اسم مدينة العسكر. ولكن في القرن الرابع الهجري، بدأت مدينة حلب تنتعش اقتصادياً عندما تحولت إلى وظيفة المدينة وأصبحت مقراً إدارياً للإمارة خلال فترة الحاكم سيف الدولة الحمداني. وبحسب وصف ابن جبير، كانت أسواق المدينة تنتشر بجانب المسجد الجامع.

3. القلعة: تقع القلعة في موقع استراتيجي هام يمكن من خلالها الاشراف على كل المراكز والقرى المحيطة بها، وساهمت القلعة تاريخياً في توفير الحماية للمدينة وأشار العديد من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين إلى مناعة القلعة وصفاتها، وأطلق البعض عليها اسم الشهباء لبياض حجارته.

ثالثاً- الأبنية التراثية في حلب خلال العصور التاريخية: إن مدينة حلب احتوت معظم الفترات الإسلامية التاريخية، وكان للمباني التراثية أثراً في انتقال هذه الفترات، إذ ازدهرت أحياناً وخبت أحياناً أخرى، ونستعرض هنا العصور التاريخية التي مرت في حلب، وما خلفته من مبان تراثية، ونبدأ بالعصر الأموي وصولاً للعهد العثماني.

في العصر الأموي لم تحظ حلب عمارانيا بالاهتمام الذي حظيت به عاصمة الأمويين "دمشق"، لذا لم يبق في حلب أي أثر من تلك الفترة سوى الجامع الأموي الكبير، وكان هناك الحاضر السليمانى نسبة إلى سليمان بن عبد الملك خارج الزاوية الجنوبية الغربية للأسوار (حي الكلاسة حالياً)، وكان له فيه قصر هام (أمونة، والشعار، وسنو، 2019، ص: 210).

أما في العصر الزنكي، فخلال ضعف الخلافة العباسية مع بداية القرن التاسع، سيطر العديد من الأمراء على مدينة حلب مثل أحمد بن طولون ثم سيف الدولة الحمداني ثم صالح بن مرداس، أي أن مدينة حلب عانت من تذبذب الحكام إلى أن أتى عماد الدين الزنكي، بعد أن ملك الموصل والجزيرة، ورحب أهل حلب بقدوم عماد الدين الذي ملك حلب وقلعتها. استلم نور الدين الزنكي حلب بعد اغتيال أبيه العام 541 هـ / 1146 م، ومن أثاره الهامة بحلب ترميم المدرسة الشيعية قرب باب إنطاكية، والمدرسة الحلوية غربي الجامع الأموي الكبير، وكذلك ترميم هذا الجامع وإضافة أجنحة إليه، كما بنى دار الذهب في قلعة حلب بين 560 هـ - 1162 م / 569 هـ - 1173 م، وكذلك تم في عهده بناء مسجد إبراهيم الأسفل في القلعة (حجار، 2010، ص: 31-32).

كما يمكن القول بأن المباني التراثية العسكرية الزنكية امتازت بالفخامة وال ضخامة، أما المباني الدينية فامتازت بدقة التفاصيل وتناسق النسب، كما نشطت حركة بناء المدارس والزوايا والربط والتكايا، حيث شجع الزنكيون العلم والطرق الصوفية أيضاً (صفاف، 2008، ص: 8).

في العصر الأيوبي عند وفاة نور الدين الزنكي العام 569 هـ / 1174 م أفلت الدولة الزنكية، وبزغ نجم السلالة الأيوبية، التي تنسب إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف الذي رافق عمه أسد الدين شيركوه في الحملة التي جاء فيها الزنكيون، لمساعدة أهل حلب ضد هجمات الصليبيين، واستولى صلاح الدين الأيوبي على حلب بجيش كبير، ورتب ابنه الظاهر غازي في حلب عام 582 هـ / 1186 م، ومما يدل على أهمية حلب قول صلاح الدين الشهير: "الآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت". وعرف الأيوبيون بأعمال التحصين والدفاع وقد تركوا كتابات عديدة تبين قيامهم بترميم الأسوار وأبواب المدينة والقلاع، كما قاموا ببناء العديد من المدارس والمساجد والخانقاهات، كما رمموا أبواب المدينة "باب النصر - باب المقام - باب قسرين" (أمونة، والشعار، وسنو، 2019، ص: 211).

وعرفوا باستعمال أجزاء الأعمدة الأفقية التي توضع بطول (1م) في جدران الأبراج، ومنحدرات القلاع وبتباعد (2م) فيما بينها تعطىها شكلاً تزيينياً جميلاً، وتقاوم في الوقت نفسه انهيار الجدار بالكامل فيما إذا ضرب بأحجار المنجنيقات الضخمة، وتميزوا كذلك بمآذن مساجدهم المربعة واستعملوا الأحجار الضخمة في البناء. كما قام الظاهر غازي في العام 1193 م ببناء قصر في قلعة حلب سماه (قصر العز). حيث كانت الفترة الأيوبية في حلب فترة قصيرة نسبياً لم تتجاوز (77 عاماً) لكنها تركت بصماتها واضحة في المباني التراثية في حلب (حجار، 2010، ص ص: 38-39). وهي فترة من العصر الزاهر الذي شهدته مدينة حلب، فعمارياً تعتبر المباني الأيوبية امتداداً للمباني الزنكية، وذلك من حيث المفردات المعمارية المستخدمة، إذ امتازت المباني الأيوبية بشكل عام بميلها إلى البساطة والتقشف، إذ تخلو مبانيها من الزخرفة والنقش، وغلب الطابع العسكري في ملامحها والذي امتاز بالضخامة والمتانة (صفاف، 2008، ص: 9).

أما في العصر المملوكي اعتبر المؤرخون أن العمارة المملوكية في حلب - قد أصابها الانحطاط - وهم مخطئون في ذلك - فالمدارس والمعابد ليست دائماً من اهتمامات الحكام ورجال السلطة فقط، فلقد تغير الأمر وظهر منطق علمي آخر بعيد عن الصراع الذي قاده الإسلام السني ضد أعدائه، إذ أن المماليك قاموا بتزويد المدينة بالضرورات اللازمة "الجوامع-الحمامات العامة والمستشفيات" (أمونة، والشعار، وسنو، 2019، ص: 212). ويقسم عصر المماليك إلى فترتين: المماليك البحرية، وامتد حكمها من عام 1250 م إلى 1382 م، والمماليك الشركسية والبرجية، واستمروا في الحكم حتى عام 1516 م، حين قضى العثمانيون عليهم. وقد اشتهر العصر المملوكي ببناء المباني العامة، كالأضرحة ذات القباب، والحمامات، والبيمارستانات (أمونة، والشعار، وسنو، 2019، ص: 211).

وقد حاصر المغول حلب أربع مرات (1262م - 1280 م - 1299م - 1312م)، وفي كل مرة كانوا يغفرون وينهبون ويسلبون، لقد كان الوضع في حلب بعد الغزو المغولي سيئاً جداً. فكل مقومات المدينة دمرت أو نهبت أو أحرقت، وخاصة التحصينات والجامع الكبير وأحياء بكاملها أزيلت من الخريطة (الحاضر السليماني).

تراجع هذه الأوضاع، جعل المماليك في مواجهة جدية لإنقاذ ما تبقى من مدينة حلب فسارعوا في الترميم والبناء. لقد شيد أول جامع في حلب داخل السور الجديد بعيداً عن الجامع الكبير، من قبل النائب المملوكي التونينغا عام 1323 م وفيه كان الولاة يؤدون صلاة العيدين (حريثاني، 2011، ص ص: 88-97).

وأخيراً عن المباني التراثية في العصر العثماني فقد دخل العثمانيون حلب عام 922 هـ / 1516 م، إثر انتصارهم في المعركة التي جرت في مرج دابق، بين المماليك بقيادة السلطان قانصوه الغوري، والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول. ومنتشر في مدينة "حلب" الكثير من المباني العثمانية والتي تجاوز عددها 300 أثر تقريباً، وتتباين وظائفها بين مبان دينية كالمساجد والمدارس ودور المتصوفة، ويبلغ عددها 118 أثراً. وهناك مبان دينية تعود إلى ما قبل العصر العثماني، ولكن جرى الحفاظ عليها وترميمها أو إجراء بعض الإضافات عليها في العصر العثماني، ومن أهم تلك النماذج الجامع الأموي. وهناك مبان حكومية وعسكرية وخدمية كالخانات والحمامات والسبلان والقساطل والمصابن والمخافر، وأخيراً الدور السكنية. سكن الولاة العثمانيون منطقة الشيخ أبي بكر، وقد عرفت الدول الأجنبية أهمية المدينة فأقامت فيها قنصليات تجارية، كان أقدمها من مثل تجار دولة البندقية -فرنسة- إنكلترا- هولندا. وتوسعت الأسواق وأقيمت الخانات وقد بلغ عدد هذه الخانات (68) في منتصف القرن الثامن عشر (أمونة، والشعار، وسنو، 2019، ص: 214).

وخلال العهد العثماني أصبحت حلب قاعدة لسورية الشمالية، ومركز والي عثماني يدعى (الباشا)، واستمرت تجارة حلب بالازدهار فأصبحت مركز تجمع تجارة الشرق المتوجهة إلى العاصمة العثمانية إستانبول، وانتشرت فيها الخانات الجديدة والأسواق المتميزة، ويدل على هذا الازدهار والرخاء في مدينة حلب بيوتها الخاصة الجميلة وخاناتها العظيمة التي تؤلف مع أسواقها وجوامعها مجموعة معمارية رائعة. ونتيجة تدهور أوضاع الحكم في إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر أصاب حلب شلل وخمول حتى عام 1918 م، حين انفصلت سورية عن الدولة العثمانية بعد الثورة العربية الكبرى (غاوي، وفيرت، 2008، ص: 286). فجوامع المدينة أجمل مبانيها بلا ريب. وهي كثيرة جداً، مآذنها وقبابها المطلية بالرخام تعطي المدينة مظهراً جميلاً بهياً.

المبحث الرابع - أوجه التشابه والاختلاف بين المدن الإسلامية (دمشق - البصرة - حلب):

وفي هذا المطلب تم الحديث عن أبرز نقاط الاختلاف والتشابه بين المدن الإسلامية التي تمت دراستها، كما سيتم بداية تقديم لمحة عامة عن ماهية وطبيعة المدن الإسلامية العربية على مر التاريخ.

أولاً- نشأة المدن الإسلامية ومراحل تطورها: تُعد الحضارة العربية والإسلامية من أعظم الحضارات في العالم، وكانت تتمثل في مدن العراق القديمة، ومدن سورية (الخياط، 1980، ص: 7). من خلال دراسة طبيعة المدن الإسلامية الثلاثة، يمكننا أن ننظر إلى المدينة على أنها ظاهرة متميزة عن غيرها من الظواهر الجغرافية الأخرى

على سطح الأرض من نواحٍ متعددة، إذ أنها تمثل أرقى أشكال العمران البشري الذي أقامه الإنسان على الأرض وأعقدّها وأبرزها تعدد وكل مدينة بؤرة حضرية تجتمع حولها وترتبط بها الانماط العمرانية الأخرى فضلاً عن أنها تسيطر على الناحية الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية للأقاليم التي تقع فيها.

وعلى هذا الأساس شكلت الخريطة السياسية للمدينة العربية الإسلامية ودعمها استمرار الفتوحات، ورسمت خطط المدن بعد أن اتخذت منزلاً للجيش العربية الإسلامية وزادت مساحتها ورسمت طرقها وشوارعها كالبصرة. وكان الاهتمام بتحصين المدينة فحفرت خنادقها وبنيت أسوارها ولم يقتصر دور العرب في حضارتهم الإسلامية على إنشاء المدن بل أعادوا الحياة إليها ووسعوا جبهتها بالمدن الجديدة كما وصلوا بأحجامها إلى مستويات ربما لم تصل إليها المدينة من قبل (الموسوي، 1982، ص: 55).

وإذا قارنا بين المدن العربية الإسلامية كالبصرة ودمشق، نجد كثيراً من المتشابهات في نظام القطاعات والخطط ومواقع المساجد والأسواق، والحمامات، وقد اتخذت الأسواق والمنشآت التجارية في المدينة الإسلامية اتجاهين رئيسيين من ناحية التكوين المعماري الأول هو تبلور بنائي في العصر الأموي عندما بنيت الأسواق وكان بناؤها عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة مكشوفة في الوسط وظهرها إلى الخارج وتعلو هذه الحوانيت وحدات سكنية كانت تؤجر لمن يرغب السكن فيها تشبه (الأجوراء) في المدن اليونانية (عثمان، 2008، ص: 256 - 257). والاتجاه الثاني هو نمط الحوانيت المترصة على جانبي الشارع الرئيسي والشوارع المتسعة، ومن مميزات السوق الإسلامي هو انتشار مهنة ما يطلق عليها أصحاب الحرف وغالباً ما تقع محلاتهم في مكان معزول عن المحلات التجارية (كركجة، د.ت.ن، ص: 312).

أية مدينة بنيت في العصر الإسلامي كانت تتبع الخطط المعمول بها في معظم الدول الإسلامية في أسواقها المتشابهة ومساجدها ومحلات سكنها وشوارعها، وتختلف مواد بنائها حسب الطبيعة الجغرافية المتواجدة فيها المدينة. وعلى هذا الأساس أقيمت المدن الإسلامية وتطورت مع تطور العصور وإن تطور الحياة الاجتماعية والحضرية أدّى إلى نشأة مراكز حضرية، ونمت المدينة العربية الإسلامية في بدايتها بصورة عشوائية إلا في اختيار الموقع إذ كان يخطط له بشكل علمي مدروس واتخذت المدينة في الغالب أشكالاً دائرية أو قريبة من ذلك أو طويلة أو خطية (الأشعب، 1987، ص: 41). وكان اختيار موضع المسجد الجامع ودار الإمارة أو القصر في قلب المدينة مع توجه الشوارع الرئيسة إليه انعكاساً صادقاً لحياة المجتمع الإسلامي داخل المدينة (العميد، 1967، ص: 37؛ وناجي، 1984، ص: 50). وقد مرت المدينة العربية الإسلامية بمراحل ثلاث (كركجة، د.ت.ن، ص: 312):

- مرحلة النشأة: وهذه المرحلة يغلب عليها الطابع العسكري.
- مرحلة النضج والازدهار: وهي المرحلة التي تتجزأ فيها مساحة الحيز الحضري مع توفير فرص التجانس في الفعاليات الممارسة فيها.

- مرحلة الاستقرار: وتتضح فيها المؤسسات المدنية وتستقر في تركيبها الوظيفي.

وعلى هذا الأساس ظهرت هناك مفردات تشترك بها المدينة العربية الإسلامية من جهة الاستعمال، وهي: الاستعمال الديني، الاستعمال التجاري، السوق المركزي، الاستعمالات السكنية، الاستعمالات العسكرية، الشوارع، الاستعمالات الصناعية، الاستعمالات الأخرى وتشمل: (المشافي، الحمامات، الربط). وتمثل هذه الاستعمالات المركب الحضري للمدينة العربية الإسلامية (كركجة، د.ت.ن، ص: 313).

ثانياً- أبرز أوجه التشابه والاختلاف بين المدن المدروسة: بعد دراسة طبيعة المدن الإسلامية الثلاثة المذكورة، سيتم تبين أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها من خلال عدّة نقاط أساسية، كما هو مبين في الجدول الآتي:

مقارنة بين المدن الإسلامية المدروسة

المقارنة	دمشق	البصرة	حلب
وضعها قبل الإسلام	من أقدم المدن المأهولة، وترجع جذورها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، كانت مركزاً مهماً في العصور الآرامية والرومانية والبيزنطية.	لم تكن مدينة إسلامية قائمة بالمعنى نفسه لدمشق وحلب؛ أنشئت في صدر الإسلام نحو 638 م، في موقع قريب من مستوطنة فارسية قديمة.	مدينة قديمة كانت قائمة منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وموقعها جعلها عقدة مهمة للطرق التجارية. تعاقبت عليها حضارات عديدة.
التأسيس	قبل الإسلام، دخلها المسلمون سنة 635م، وأصبحت عاصمة الدولة الأموية سنة 661م.	تأسست عام 638م / 17هـ على يد عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب.	قبل الإسلام؛ دخلت في الدولة الإسلامية نحو 636م، ازدهرت العصر الحمداني ثم الأيوبي.
الموقع	جنوب غرب سورية، عند سفح جبل قاسيون وعلى نهر بردى.	جنوب العراق قرب شط العرب ومجاري المياه المتصلة بالخليج.	شمال سورية، عند ملتقى طرق تربط بلاد الشام بالأناضول والجزيرة والعراق.
الوظيفة العسكرية	مركزاً استراتيجياً مهماً للدولة الأموية، ووظيفتها العسكرية ارتبطت بكونها عاصمة الدولة.	سبباً لتأسيسها ونشأت كحامية للجيش الإسلامية التي كانت تقاتل في العراق والجبهة الساسانية.	ظهرت وظيفتها العسكرية بسبب موقعها في شمال بلاد الشام وقربها من البيزنطيين.
المسجد الجامع	الجامع الأموي، شُيّد بعهد الوليد بن عبد الملك بين 705-715م، في المدينة وعلى موقع ديني سابق كان معبداً ثم كنيسة.	جامع البصرة كان من العناصر الأساسية في تخطيط المِصر منذ نشأته، وارتبط منذ البداية بالتكوين السياسي والعسكري للمدينة.	الجامع الكبير (الأموي)؛ ترجع نواته الأولى إلى العصر الأموي.
الأسواق	تقع حول مركز المدينة والجامع، وارتبطت بالحرف والتجارة الداخلية والإقليمية.	تطورت مع تحول البصرة إلى مدينة كبرى، واستفادت من موقعها المائي واتصالها بالتجارة العراقية والخليجية.	من أبرز سمات المدينة؛ تشكلت شبكة واسعة من الأسواق والخانات المتخصصة، وارتبطت بالجامع والقلعة.

القلاع	قلعة دمشق جزء من منظومة تحصينات المدينة، إلى جانب الأسوار والأبواب، لكنها لم تكن العنصر المؤسس للمدينة الإسلامية.	لا تمثل القلعة عنصراً مركزياً في نشأة البصرة؛ فالدور الدفاعي الأول للمدينة ارتبط بطبيعتها بوصفها مصراً وحامية عسكرية وموقعها الجغرافي وشبكة التحصينات المرتبطة بها.	أبرز عنصر عسكري وعمراني في المدينة، وتعلو المدينة القديمة وأسواقها. وأصبحت مركزاً للتحصين والسلطة العسكرية، خصوصاً في العصر الأيوبي والمملوكي.
--------	---	---	--

الجدول: من إعداد الباحث.

بعد دراسة طبيعة نشأة المدن الإسلامية الخمسة (دمشق والبصرة، وحلب) يلاحظ أنّ أغلبها كانت تتشابه في ظروف نشأتها باستثناء مدينة حلب، حيث كان العامل الأول وراء تأسيسها هو العامل الدفاعي العسكري، وخاصة خلال الفتوحات الإسلامية، حيث لجأ القادة المسلمون إلى البحث عن أفضل الأماكن لبناء المدن فيها بهدف اتخاذها أحصاناً ضد الأعداء من جهة تأمين المؤن للجيش. فكانت بداياتها على شكل مراكز عسكرية كانت مقراً للجند ثم جرى تطويرها لاحقاً إلى مدينة ذات حياة مدنية.

لذلك، نلاحظ أنّ المسلمين أسسوا المدن على أساس أنها معسكرات، على حافة المناطق الصحراوية، وشبه الصحراوية؛ لتكون حلقة وصل بين شبه الجزيرة، والجهات الحربية، وعلى الرغم من أن المدن التي أنشأها المسلمون في بداية فتوحاتهم كانت لها الصفة الحربية، مما ظهر على تخطيطها، لكن سرعان ما ظهر فيها الجانب الحضري، مثل: (البصرة) في العراق. وهناك مدن إسلامية أخرى، كانت موجودة قبل الفتح الإسلامية، ولكن أصبحت خلال الفتوحات الإسلامية مقراً للقيادات الإسلامية خلال تلك الحقبة، مثال مدين دمشق يعود تاريخ تأسيسها إلى مرحلة ما قبل الميلاد. ولكن عندما بدأت الفتوحات الإسلامية، دخل العرب المسلمون دمشق إليها عام 14 هـ / 635م - 636م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجيش من أبرز قادته أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد.

مع مر العصور، تطورت المدينة على الشكل الهيكلي الإسلامي، وقد ازداد تألقها الحضاري عندما أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية في العام 41 هـ 661م في عهد الدولة الأموية الأولى، حيث دخلت الجيوش العربية الإسلامية دمشق في القرن السابع الميلادي لكي تتحول المدينة إلى عاصمة للإمبراطورية الإسلامية الكبرى التي امتدت إلى حدود الصين شرقاً وإلى مياه المحيط الأطلنطي غرباً.

أما بالنسبة لمدينة حلب، هي أيضاً ليست جديدة مقارنة بالمدن الأخرى غير دمشق، وغنما يعود تأسيسها إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وكانت المدينة مأهولة وتمدنية خلال فترة الفتوحات الإسلامية، وتعرض خلال تاريخها الطويل إلى تغيرات عدّة، لكن بقيت الأهم كونها مركز اقتصادي مهم، وخلال الفتوحات الإسلامية، لم يهمل المسلمون المدينة، وإنما أصبحت ركيزة أساسية للخلافة ومركزاً اقتصادياً وتجارياً هاماً.

لذلك، من خلال ما سبق من حيث النشأة والتأسيس، نلاحظ أنّ مدينة البصرة كانت ظروف تأسيسها مختلفة عن مديني حلب ودمشق. أمّا مدينة حلب ودمشق، هما أقدم زمنياً، ويعود تاريخ تأسيسهما إلى سنوات

كثيرة في مرحلة ما قبل الميلاد. وعليه يمكن القول أنَّ هناك العديد من العوامل التي أثرت في تحديد موقع المدينة الإسلامية وهي:

- توافر مياه الشرب والزراعة والمواصلات الطرق البرية.
- تأسيس الأسواق عند تقاطعات الطرق الرئيسية.
- وجود البحار كمراكز للسفن البحرية والتجارية.
- المناخ المناسب للمدينة.
- الموقع الاستراتيجي للمدينة ووجود التلال والقلاع.

كما يلاحظ أنَّ أغلبية المدن الإسلامية المدروسة أو جميعها كانت مصممة وفق طابع هيكلي خاص، حيث كان يتوسطها تقريباً "المسجد الجامع" وهو ركيزة أساسية فيها، فهو يعد المسجد من أهم الفعاليات الدينية في المراكز الحضرية الإسلامية فقد سيطر على أفضل المواقع. كما كانت المدن الإسلامية تتميز بوجود "سوق مركزي"، حيث سيطر السوق الإسلامي المركزي على المدينة العربية الإسلامية وموقعه بالقرب من المسجد الجامع مستفيداً من المركزية العالية للمسجد الجامع وسهولة الوصول من كل أطراف المدينة عن طريق نمط الشوارع الشعاعية المرتبطة بهيكل المدينة العام، وتتصف أسواق المدينة الإسلامية بكونها مسقوفة ومعبدة كسوق الحميدية في دمشق، والذي يقع بالقرب من الجامع الأموي، فضلاً عن أنها مراكز تجارية وهي من محاور النهضة العمرانية للمدينة العربية الإسلامية.

كل المدن الإسلامية المدروسة، بنيت فيها أسواق إلى جانب الجوامع المركزية فيها، وكانت هذه الأسواق مركزاً اقتصادياً هاماً يرتاده كل السكان للتسوق وكذلك التجار والزوار. وكانت تمتاز هذه الأسواق بتقاسيمها وتوزيعها على أرجاء السوق وكان الممرات إليها عبر شوارع محددة، وكانت تسمى الأسواق حسب طبيعة المهن التي توجد فيها، حيث وتعد الشوارع في المدينة العربية الإسلامية وسيلة مهمة من وسائل الاتصال ولم تكن خاصة بالحركة أو فصل القطاعات وإنما كانت تؤدي خدمات حضرية متعددة إذ يمارس نشاط تجاري كثيف خاصة الشوارع القريبة من المنطقة المركزية. ونلاحظ أنَّ مدينة حلب كونها من المدن الإسلامية التي تم التعديل عليها، كونها كانت مأهولة قبل الفتوحات، فقد لجأ المسلمون إلى إكسابها نفس النسق العام للمدن الأخرى، من جهة الأسواق فقد تم إنشاء أسواق بجانب المسجد الجامع فيها.

أما بالنسبة لمركز الحكم، أو كما كانت تسمى تاريخياً، "دار الإمارة"، فقد كانت جميع المدن الإسلامية فيها دور للإمارة، ولكن خلال التغيرات اللاحقة بعد تأسيس كل دار، حصلت عليها تغيرات عدّة من جهة الشكل العام وأماكنها بسبب تغير ولاية الأمر أو أمراء تلك المدن، فمنهم من كان يستقر في الدار نفسها، ومنهم من كان يبني لنفسه إمارة جديدة وبمكان جديد ولو كان المكان يختلف ولكن كانت التسمية واحدة.

كانت للمدن العربية استعمالات أخرى تختلف عن الاستعمالات الثلاثة السابقة، فقد كانت تؤسس فيها مؤسسات دينية تعليمية، ومؤسسات صحية كـ (المشافي والمارستانات)، وكذلك الحمامات القديمة المشتركة، وكان لها دور واضح في تقديم النشاطات الاقتصادية للمدينة العربية الإسلامية.

الخاتمة:

تبين الدراسة أنّ الحضارة العربية والإسلامية تعد من أعظم الحضارات في العالم على الإطلاق، وانعكست هذه العظمة على شكل وسمات، ومواقع، ومواضع المدن العربية والإسلامية التي تفوقت على معظم مدن العالم الأخرى لجهة أهمية اختيار موقعها والأدوار التي أدتها عبر العصور. وكانت تشترك أغلبية المدن العربية الإسلامية بصفات معينة، وكانت تقف إلى حدّ ما الظروف نفسها وراء تأسيسها وشكل العامل العسكري دوراً هاماً في ذلك، بالإضافة إلى ذلك، أولى المسلمون للمدن اهتماماً واضحاً لجهة الطابع الإسلامي لإدارة المدينة، إذ يلاحظ أن التقسيمات الإدارية ضمنها كانت متشابهة.

وبناء على ما سبق توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. كانت هناك إلى حدّ ما عوامل مشتركة دفعت إلى تأسيس أغلبية المدن الإسلامية وهو الموقع الاستراتيجي، حيث تم تأسيس المدن الثلاثة لما شكله موقعها من حلقة ربط بين الأمصار ومركزاً حضارياً وثقافياً واقتصادياً هاماً على مر العصور.
2. اكتسبت المدن الإسلامية المدروسة أهمية بالغة خلال الفتوحات الإسلامية، حيث كانت مقراً للجيش ومركزاً لإمداد الجيوش الإسلامية بالمؤن والسلاح ومركزاً للدعم الصحي وغيرها.
3. يوجد في أغلبية المدن الإسلامية معالم تاريخية كثيرة من جهة الجوامع الإسلامية الأثرية، وكذلك الكنائس، وأيضاً الأسواق القديمة ذات الأسقف المغطاة وأيضاً اشتركت جميعها بوجود الحمامات المشتركة والقصور والخانات.
4. يوجد العدد من نقاط التشابه بين المدن الإسلامية من جهة الهيكل العام الإداري فجميعها كان يوسطها تقريباً المسجد الجامع وكانت توجد جنة دار الإمارة، ويحاط به الأسواق المركزية الأساسية ووجود شوارع خاصة توصل إلى كل قسم من أقسامه، وكانت شكل المدن مختلف حسب موقعها. أضف إلى ذلك، طبيعة المرحلة التي تأسست فيها كل مدينة، أسهمت في تعزيز شكل المدينة والمواد المستخدم فيها سواء من جهة اللبن والطين أو الحجارة أو الخشب أو الأوراق المستخدمة لسقف السطوح.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- الكتب العربية:

1. ابن عساكر، الإمام أبي القاسم علي بن الحسين بن عبدالله الشافعي، "تاريخ مدينة دمشق"، دار الفكر، ج: 1، دمشق، 1995.
2. ابو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، الطبعة الأولى، دار مكتبة هلال، بيروت 1984.
3. أحمد بن أعثم، (ت: 314 هـ)، الفتوح، تحقيق: د. علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت- 1991م)، ج1.
4. أحمد بن داود الدينوري، (ت: 282 هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال، (القاهرة- 1960).
5. أحمد بن محمد الثعلبي، (427 هـ - 1035م)، تفسير الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر، (بيروت . 2002م)، ج1.
6. إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي، (ت: 1330 هـ)، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مطبعة الأوفست، (بيروت- ب. ت)، ج2.
7. إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت: 393 هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، (القاهرة- 1987م)، ج2.
8. تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة 2، القاهرة، 1987، الجزء الأول.
9. حاجي خليفة، ومصطفى عبد الله بن كاتب جلي، (ت: 1067 هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: شهاب الدين المرعشي، (بيروت- ب. ت)، ج1.
10. حان سوفاجيه، دمشق الشام (لمحة مختصرة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر)، بيروت، 1936.
11. رفيف صفاف، دراسة تاريخية عمرانية لحلب القديمة داخل الأسوار ومتطلبات الحفاظ عليها- حي الجلولم أنموذجاً، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 2008.
12. سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، (ت: 360 هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط2، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، (بيروت- 1984م)، ج10.
13. شهاب الدين أحمد بن محمد، سلوك الممالك في تدبير الممالك على التمام والكمال.
14. صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي، (ت: 764 هـ / 1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي (بيروت- 2000م)، ج27.

15. طاهر مظفر العميد، بغداد مدينة المنصور المدورة بغداد، مطبعة النعمان، 1967.
16. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: نخبة من العلماء والمحققين الأخصائيين، تحقيق: محسن الأمين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت- 1995م)، ج1.
17. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت: لبنان، الطبعة الأولى، 2001.
18. عبد الرزاق حسين، "نشأة مدن العراق وتطورها، مطبعة النجف، 1973.
19. عبد القادر باش أعيان العباسي، موسوعة تاريخ البصرة الجزء الأول، خطط البصرة، شركة التأمين للطباعة والنشر، 1970.
20. عبد الله حجار، معالم حلب الأثرية، حلب، مطبعة جورج ومتيلد، 2010.
21. عفيف عيسى، "عمران الفيحاء دراسة في تطويع مدينة دمشق، 2002.
22. علي حسن موسى، في ربوع سورية جغرافياً وسياسياً، دمشق، 1995.
23. علي حسن، دمشق مصايفها ومنزهاتها، دار البشائر، دمشق، 1999.
24. فاطمة جودة الله، سورية نبع الحضارات، دار الحصاد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق، 1999.
25. محمد بن أبي يعقوب إسحاق بن محمد، (ت: 438هـ)، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق: رضا تجدد، 1971م.
26. محمد بن حبان بن أحمد ابن حبان البستي، (ت: 354هـ)، الثقات، مجلس دائرة المعارف العثمانية، (الهند- 1973م)، ج6.
27. محمد خير الدين أمونه، ومها الشعار، وابتسام سنو، دراسة ترميمية للمباني التراثية (البیمارستان النوري في مدينة حلب القديمة كنموذج دراسي)، مجلة الأكاديمية العربية في الدنمارك، العدد 22، 2019.
28. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية - عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1408هـ - 1988.
29. محمود حريثاني، حلب مدينة التاريخ، دار شعاع، 2011.
30. مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982.
31. هاينتر غاويه، وأويغن فيرت، "حلب دراسة تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبية الاجتماعية والحركة الاقتصادية لأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى"، تعريب تدقيق وتحديث: د. صخر علبی، منشورات وزارة الثقافة الهيئة السورية للكتاب، سوريا، الجزء الأول، 2007.
32. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ نشر.
33. يحيى، وزيري، "العمارة الإسلامية والبيئة"، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004.

34. يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي، (ت: 742هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، ط4، (بيروت- 1985م)، ج33.

ثانياً- المجلات والرسائل العلمية:

1. أسامة إسماعيل عثمان، التخطيط الحضري في بعض مصنفات العلماء المسلمين دراسة في الفكر الجغرافي، مجلة البحوث الجغرافية، العدد 10، كلية تربية جامعة الكوفة، دار الضياء، 2008.
2. أسامة قدور، الأهمية الاستراتيجية لتحديد إقليم دمشق، مجلة جامعة دمشق، المجلد 32، العدد 1، 2016.
3. جواد العيداني، تخطيط مدينة البصرة في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة بغداد، 1983.
4. خالص حسني الأشعب، التوثيق ومفهوم مراحل نمو المدينة العربية، مجلة التراث والحضارة، العدد 9، بغداد المكتبة الوطنية 1987.
5. دارين علي أحمد، وفيصل قماش، دراسة جيودمية للبنية العمرانية القديمة في دمشق، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 40، العدد 2، 2018.
6. سهيل تركي عنتر، "الحياة الاقتصادية في البصرة خلال العصر البويهي (334- 447 هـ - 945- 1058م)، مجلة الدنانير، العدد 11، 2017.
7. عبد الجبار تحسين مي، استغلال المناطق السياحية والتاريخية لمحافظة البصرة، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، 2005.
8. عبد الجبار ناجي، مفهوم العرب للمدينة الإسلامية، مجلة المدن العربية نشر المنظمة العربية للمدن، العدد 14، السنة 3، 1984.
9. فواز عاد جاسم كركجة، جوانب من بنية المدينة العربية الإسلامية ودواعي توثيقها، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد 11، العدد 1، العراق.
10. قاسم خلف الجيزاني، "تاريخ مدينة البصرة"، مجلة كلية التربية الأساسية، العراق، العدد 56، 2009.
11. ميادة عبد الملك صبري، "تخطيط وعمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة" نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنظور الإسلامي"، مجلة كلية التربية، واسط، العدد (11)، (د. ت. ن).
12. نادية نور علي، "نشأة مدينة البصرة وتطورها العمراني في القرن الأول الهجري"، مجلة دراسات البصرة، السنة السابعة، العدد 14، 2012.

ثالثاً- المواقع الإلكترونية:

1. تقرير بعنوان: البصرة (مدينة العلم والعلماء)، موقع مداد، سلسلة مقالات، تعريف بالمدن الإسلامية، 8

تشرين الثاني 2007، الرابط: <https://cutt.us/nalCW>